

الزهراء

الزهراء أحد قصور أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر أمير الأندلس فى أزهى أيامها. أشرف على بنائها حتى أنه شغل بها عن صلاة الجمعة يوماً ولما دعى القوم من الإمارة ومن خارجها يوم فتحها. وهنأه المهنتون ومدحه المادحون.

قام بعدها القاضى وإمام الأئمة بالأندلس. منذر بن سعيد البلوطى فصعد المنبر وكان اليوم يوم جمعة فبدأ بقول الحق..

﴿أَتَبُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعَيْونَ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿ (الشعراء: ١٢٨: ١٣٥).

ثم أفاض فذم السرف والترف. وإضاعة أموال الأمة فى زخرفة القصور ودمعت عيناه وهو يوجه حديثه لأمير المؤمنين قائلاً:

ما ظننت أن الشيطان - أخزاه الله - يتمكن منك هذا التمكين. حتى أنزلك منازل الكافرين. فجعلت قداميد بيتك من الذهب والفضة والحق يقول: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوتِيَهُمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِيُوتِيَهُمْ أَبْوَابًا وَسُررًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ (٣٤) وَزَخْرَفًا

وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿ الزخرف: ٣٢: ٣٥ ﴾

ووصله يقول الحق ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانَهَارَ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿

(التوبة: ١٠٩: ١١٠).

وما زال يعظ. حتى أبكى الناس ونسوا الإحتفال. وأرتجى المسجد بالبكاء فلما قضيت الصلاة إنصرف الخليفة مغاضباً.. وقال لإبنه..

- أرايت جرأته علينا.. والله لا صليت خلفه الجمعة أبداً..

فقال له إبنه الحكم. والذي أصبح بعده خليفة.

وما يمنعك من عزله..

فقال له.. ويحك. أمثل منذر بن سعيد في فضله وورعه وعلمه.. لا أم لك.. يعزل في إرضاء نفسى ناكبة عن سبيل الرشد. إني لا أستحي من الله أن أجعل بينى وبينه إماماً غيره. ولكنه قسم سبق.

وبعد ذلك..

أمر بنقض الذهب والفضة من القصر.

فهل كان المنذر إهابياً..

ومع الناصر. موقفاً آخر..

لما أراد الناصر أن يبني بيتاً لإحدى زوجاته وكان بجوار المكان داراً صغيره وحمام لأيتام تحت ولاية القاضى. فطلب شراءه. فقالوا..

إنه لا يباع إلا بإذن القاضى.

فسأل القاضى بيعه..

فقال القاضى . أبيعهُ بثلاث .

إذا إحتاج الأيتام ذلك .

أو إذا وهن البناء ..

أو غبطة الثمن ..

فأرسل الخليفة من يقدر الثمن ولم يعجب القاضى التقدير . وخاف القاضى أن يأخذها جبراً . فأمر بهدم الدار والحمام وباع الأنقاض بأكثر مما قدر الخبراء (ويبدو أن الخبراء الرسميون هكذا دائماً . فى كل زمان ومكان) دينهم دين الملك . وعز ذلك على الخليفة فقال له ..

ما دعاك إلى ذلك ؟

فقال القاضى . أخذت بقول الحق تبارك وتعالى . ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ (الكهف: ٧٩) .

يا أمير المؤمنين . لقد بعث الأنقاض بأكثر مما قدر الخبراء للدار والحمام . وبقيت للأيتام الأرض .

فالآن اشتراها بما تراه لها من ثمن ..

فقال الخليفة الناصر .. أنا أولى أن أنقاد إلى الحق منك ..

فجزاك الله عنا وعن أمتك خيراً ..

الحق يا سادة يعلو ولا يعلى عليه ..



الشيخ طاهر الجزائري

رجل من رجالات دمشق. نرح إلى مصر لما ضاقت الشام وحكامها بدعوته. وأخذ يبيع من كتبه. ومن ذخائر المخطوطات التي أفنى حياته في إقتنائها. ليأكل. وكان يأبى إلا الثمن الغالي من مكتبة المتحف البريطاني أو أى مؤسسة أجنبية أو التجار. فإذا كان البيع لدار الكتب المصرية باعه بنصف الثمن أو للعرب. وذلك ليظل الكتاب فى أيدي العرب لا يخرج عنهم.

فلما كادت تنفذ كتبه. سأل أحمد تيمور باشا الشيخ على يوسف أن يكلم الخديوى فى منحه مرتباً دائماً أسوة بمن كان يمنحهم المرتبات من العلماء والأدباء. ونجحت الوساطة ومنح الراتب. فلما علم بذلك غضب أشد الغضب وقال للشيخ على يوسف.

كأنى بك قلت للخديوى أن الشيخ طاهر أثنى عليك. نعم إنى أثنت عليه لتأييده مشروع زكى باشا فى خدمة الكتب العربية. ولكن ما الذى يضمن لك ألا يأتى الخديوى بصد هذا العمل يوماً فأذمه؟

فلماذا تسود وجهك بسببى؟

ومن أذن لك أن تدخل نفسك فى خصوصيات أمرى. إذهب فأبطل ما سعيت بإتمامه.

ورجع يعيش الكفاف والتقيد بأثمان ما بقى من كتبه.

وهنا قال الشيخ على يوسف..

كنت أظن أن هذه الطبقة من الأفاضل قد إنقرضت. فلما رأيت الشيخ طاهراً علمت أنه لا يزال على وجه الأرض بقية منها. (من كتاب رجال من التاريخ الشيخ على طنطاوى دار البشير الجزء الثانى).



النصر بخلق الرجال

فى تاريخ السلف من أمراء المسلمين ما فيه صور ناصعة البياض.
عظيمة الصورة والمظهر..

ذاك أن السلطان محمود الخليجى إستجد بالسلطان مظفر بن محمود ملك «أحمد آباد» بالهند وكانت تسمى دولة الكجرات. فقد غلبه المجوس على دياره واحتلوا عاصمته وفيها أهله وأمواله وخرج السلطان مظفر لنجدة السلطان محمود الخليجى بجيش ضخم. فخدعه العدو وعرض عليه أن يسلم له القلعة وما طلوه حتى جاءهم المدد بالقائد الهندى (رنطاسانطا) وكار السلطان مظفر يسقط بين شقى الرحى إلا أنه وبحيله حربية بارعة وشجاعة نادرة. يفتح القلعة ويدمر الجيشين ويكون له النصر. ولما وصل الى باب القلعة رفض أن يدخلها قائلاً للسلطان محمود الخليجى. باسم الله. (ادخلوها بسلام آمنين). وعطف عنان فرسه راجعاً إلى مملكته. إلا أن السلطان محمود. أقسم عليه بالدخول. فدخل باراً بالقسم وعرفه السلطان محمود على أبنائه وآثار مملكته ثم قال له..

الحمد لله الذى أرانى بهمتك ما كنت أتمناه.. ولم يبق لى الآن أرب
بالمملك وأنت أحق به منى...

فقال السلطان المظفر..

يا أخى إن أول خطوة خطوتها إلى هذه المملكة كانت لله. لا لقصد

الملك. والله يبارك لك فى ملكك على أن يقيم فيه كلم الله. وتحكم بشرعه وأن تكون يداً واحدة فى كل أمر.

فقال الخلجى. أيها السلطان. لقد خلى ملكى من الرجال. وليس لدى جيش يحميه ولا أمن عودة العدو.
قال المظفر.. أما هذه. فنعم.

ثم أمر قائده «آصف خان» ومعه إثنى عشر ألف جندى بالبقاء مع السلطان محمود والإئتمار بأمره. وهو يقول لهم.

إن جرايتكم على حالها ورواتبكم ونفقاتكم كلها على كما كانت. وما أعطاكم السلطان الخلجى من شىء فهو توسعة عليكم..

ثم أمر بخزانة للسلطان محمود الخلجى يقوم بها على شئون دولته حتى تستقر الأمور بها.

ولما هم بالرحيل. سأله أركان دولته أن يستأسر لنفسه بالقلعة ويضمها إلى ملكه. فألقت إلى الخلجى. وقال له..

إحفظ باب القلعة برجالك. ولا تدع أحداً يدخلها بعد نزولى. ولو كان من أصحابى وأولادى..

فى تحذير له من طمع أحد فيها..

والعجيب أن آباء الخلجى كانوا أعداء لدولة الكجرات وألد خصومها. بل إن والد الخلجى هذا المسمى بغيث الدين الخلجى كان قد خرج إلى الكجرات لنصرة كفار الهند على سلاطينها المسلمين..

ويأتى الحفيد ويحفظ ملك إبنه عليه..

إنهم الرجال ومواقفهم الفاذة.

رجال الخنساء

إمرأة أنجبت رجالاً..

فى موقعة القادسية تقدمت الخنساء بنت عمرو بن الشريد بأبنائها الأربعة للجهاد فى سبيل الله.

وكان بنوها من أعظم الرجال وأقواهم عزيمة وأشدهم بأساً.

وقفت بين صفوف الجيش تدفع أبنائها إلى آتون المعركة دفعاً تحضهم وتحرضهم وتذمرهم وتستثيرهم على القتال وتحذرهم من الفرار بقوة القلب ورياطة جأش. وصدق طوية مطوية على الخير لنصرة دين الله تعالى..

وكان مما خضرتهم به قولها..

إنكم أسلمتم طائعين. وهاجرتم مختارين. وإنكم لأبناء أب واحد وأم واحدة ماجنت أبائكم. ولا فضحت أخوالكم..

فلما أصبحوا باشروا القتال ببسالة وشجاعة منقطعة النظير وبطولة خارقة لا مثل لها حتى قتلوا الأربعة واحد بعد واحد وكان كل واحد منهم ينشد دخوله المعركة.

رجزاً قبيل دخوله المعركة قائلاً:

الأول:

قد نصحتنا إذ دعتنا البارحة
وإنما تلقون عند الصباحة

يا إخوتى إن العجوز الناصحة
بمقالة ذات بيان واضحة
من آل ساسان كلاباً نابجة

وقال الثانى:

قد أمرتنا بالسداد والرشد
فباكروا الحرب حُمَاهِ فى العدد

إن العجوز ذات حزم وجلد
نصيحة منها وبرا بالولد

وأنشد الثالث:

نصحاً وبرا صادقاً ولطفاً
حتى تلفوا آل كسرى لفا

والله لا نعصى العجوز حرفاً
فبادروا الحرب الضروس زحفاً

وأنشد الرابع:

ولا لعمرو دى السعاء الأقدم
ماضٍ على الهول خضم حصرمى

لست الخند ساء ولا للأخرم
إن لم أره فى الجيش جنس الأعجمى

فلما بلغها إستشهاد الأربعة. قال:

الحمد لله الذى شرفنى بشهادتهم وأرجو من ربه أن يجمعنى بهم فى
مستقر رحمته.

